سوايسة من أمدرمان

قصة

أباذر أدم الطيب

الطبعة الأولى

2021م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

عنـــوان الكتاب: سوايسة من أمدرمان

اســـــم المـؤلف: أباذر أدم الطيب

التصنيف الأدبي: قصة

رقـم الإيـــــداع: 5055 / 2021

الترقيـــم الدولي: 7 - 015 - 998 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: م. شيماء منيـر

التدقيــق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحتـه عبر شبكة الإنترنـت، إلا بـإذن كتـابي مسبق من المؤلـف أو الناشر.

سوايسة من أمدرمان

قصة

أباذر أدم الطيب

2021

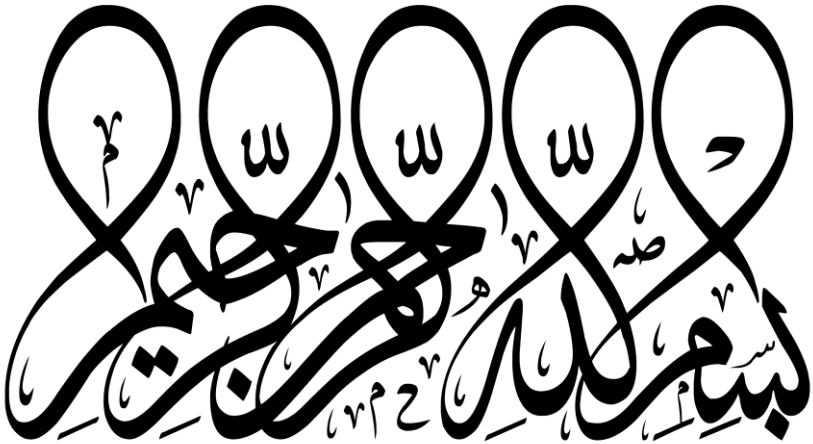
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الذين يقفون شموخاً كالجبال بعزيمتهم القوية المنبعثة إليهم بلا كلل زملاء أبي وزملائي العاملين أينما كانوا.

أباذر الطيب

❊❊❊❊

بلد الغريب

على شاطئ البحر الأحمر ومع نسمات كل صباح يتجدد الأمل لي وكل من معي من الآملين بكل ما هو أفضل فالشاطئ يبهرنا ويسرق منا آهات البعد وأرق الأيام ونحن نكاد ننتمي إلى زمرة المنسيين بين البحر الأحمر والحياة على جنبات بلد الغريب اسمها السويس ولقبها بلد الغريب أحياناً تحرقنا الشمس وأحياناً نحترق لوحدنا كأننا شظيات لهيب لا تعرف الرجوع إلا الحريق، هذا ما نتهامسه بيننا عندما يشتد الوجد والحنين فأغلبنا سرق منه البعد لقاء الأحباب والجلوس بينهم؛ فكم الآهات هائل لا تحسبه الأرقام والحروف وكدمات وأشواق، فنحن معشر سوايسة أمدرمان البحر لنا نغسل فيه وعثاء الأيام ونبني عليه أملاً لمستقبل زاهر.

حينها استيقظت من غفوة شرودي إلى عوالم الشاطئ وأنا أمتطي ميكروباص الأمل الأربعين باحثاً عن لا شيء متفقداً هذا الإبداع الرباني لمدينة السويس أم قلب أبيض حليب؛ فهي في استقبالٍ دائمٍ للغرباء من كل بقاع الأرض، محتوية لهم بكل حنانٍ ودفءٍ. حينما أشتاق لأمي أخرج كما حالي الآن لأحتضن شوارعها وأحياءها ومعالمها فيقل الشوق عندي ويظل فينا باقياً.

فالشوق هنا يختلف والبعد يختلف وكل ما هو مؤلم مختلف دائماً ما أربط هذه المدينة بمناطق الجزيرة وطيبة أهلها وسماحتهم أظنهم كما يظن الكثير من سوايسة أمدرمان أنهم وجه الإنسانية فاللانسانية وجه وأطراف مختلفة.

"يا أستاذ لو سمحت ده الآخر بتاعنا" أيقظني السائق مرة أخرى وأنا مستيقظ. سرت وأنا متيقن أن أمي تشعر بهذه اللحظة بالذات لحظة نزولي متدرجاً من الأربعين ناحية الألبان وكفر حودة إلى أن سمعت صوت القطار وترانيمه التي يشدو بها ليعيد من أراد إلى قاهرة المعز ثم إلى بقاع مصر المختلفة ثم إلى بقاع الأرض المختلفة وأنا دائماً ما تلهمني القطارات وأصواتها تطربني تقريباً.

عدت ثانية استنشق عبق البحر إلى بائع ورد العوائد وعبق البحر يلازمني وترانيم القطار تطربني وصوت المؤذن في مسجد الغريب يشعرني بالراحة وأنا بين ثناياها أطوف مبعثراً بلا وجهي والبحر الأحمر كظلي حين أخطو أسميه بيني وبين نفسي الترياق.

وأرى الموشي تقترب حيث اقترب إليها والسير قدماً نحو لقاء محموم يجمعنا خيالياً بمن نحب تذكرة بلا سبب علاء الدين الطموح ومحمد موسى العريس ونحن مجتمعون على وجبة الغداء وكل منا ينظر ويتحدث كمتخصص في كل الشؤون ويقدم المقترحات والحلول.

ثم عدت إلى أن وصلت الموقف وأنا أستمع وأستمتع وهم ينادون أسماء المدن والمناطق رمسيس رمسيس مرج مرج وهكذا يسمى حباً عند البعض وعند آخرين شغفاً وفي رأيي الحب أعمق، وعلاء يتحدث عن نظرية الهاوية وما يشاع هنا وهناك وأعود وأقول الحب أعمق من كل النظريات وأثمن من

كل النفائس كضحكات عبد الكريم الصادقة وتراجيدية خالد الواضحة والمقام يتسع مع كل ألوان الحب التي يشع منها النور

ثم إني أتحرك بإحساسي لأجد عبق البحر يلازمني وريح أمي في كل جوانب السويس غناوة بنت الفكي ود آدم ود الشيخ علي بنت أمها التي لم تترك لها شيئاً إلا أخذته.

حاسب يا عم المكنة كانت حتخبطك لامؤاخذة. هذه الصباح كأنها تلامس أوتار عود بعزف أستاذ أحمد حسن يوسف وهو يغني لنا ونحن صبية أغنية بلد الخير وسوايسة أمدرمان وأنا واحد منهم يحملون ويحلمون ثم البحر صديقهم ومصطفى صلاح حكشة يتفانى وهو يعاني الأمرين يحب الخير ولا يرد السوء مثله وأم إسلام وأم محمد ودكتور محمد نور وإسلام وعبدو شقيقه إنهم وجه الإنسانية الوضاء يحملون ويحلمون كما سوايسة أمدرمان فصيل المنسين بين أحضان بلد الغريب وفي المستقبل النظرات تستقبل وأنا أتبين وأتفحص بين المستقبل والمستقبل وعبق البحر يلازمني وصوت القطار وحرب أكتوبر وذلك النصر المبين وشارع الجيش والعراقة التي تحيط السويس، ثم ارتشفت من القهوة التي أعدها إدريس ففتحت النوافذ في رأسي وجدت أننا جلوس وأبو بكر خليل يتحدث عن المركز والهامش وقتل الأبرياء ومن هو القاتل ولماذا قتل وعبد الله جروك مقاطعاً، ثم ساد الصمت. شربت ما تبقى من القهوة دفعة واحدة كأنني أتجرع سماً زعافاً من منتوجنا المحلي وجروك يصرخ ليست هناك حرية أنه كلام ينطق

ولا يفعل وأبو بكر يشرح وأنا أسرح في كل كلمة قيلت وأبحث عن مرادفها من الكلمات ولا جدوى ولا نفع الكلمات هي الكلمات التي تنطق فقط ثم إن وأخواتها والشاطئ يبين ويختفي وكل الركاب يتحدثون وأنا أسأل الأجرة كم يا أسطى وأعود وأسأل إدريس البن ده سوداني والركاب يتحدثون وأصواتهم تعلو وإدريس وأبو بكر وبشير وعبد الله خليل ومعتصم يضحكون ويقولها عبد الله في الأخير مالكم كيف تحكمون ومعشر المنسين من سوايسة أمدرمان يشتاقون وأنا أشتاق وأمي تعرف ذلك وعبق البحر والشاطئ يبين ويختفي وشرطي المرور وشيخ رضا السواق والحب أعمق في رأيي وهذا الطريق السريع وسوايسة أمدرمان أحياء يرزقون يحملون ويحلمون.

****

الحرية كما خلقها اللّه

الأشياء دون قيود تكون أجمل وتعطي ويعطي في الأصل صاحبها. أظن أن هذه الحرية المطلقة كما خلقها الله أن تنمو الأشجار وتلد الثمار وأن تتكاثر الحيوانات والأنعام منها وأن يعتقد الإنسان ما فطر عليه دون أن يملي على أحد ويمارس ما يريد ويشتري ويبتاع ممن يشاء.

أكمل خالد حديثه هذا ظني وليس اعتقاداً، ثم داهمنا صوت الوراقة بكل حرية الأصوات ورفع الجميع أبرولاتهم الغبشاء التي لا تنتمي لأي من الألوان ولاح في الأفق بحرية مطلقة عبق البحر وهتف الجميع اللّٰهُمَّ انصرنا على هذه المكنات والطريق طويل والأيام حبلى بما هو آتٍ

أيضاً من الحرية أن تزرع الابتسامة في وجوه الجميع، هيثم بكل رضاهم لعل أحدهم لا يريد الابتسام. ومن منا قالها خضر ليس للحرية أي معنى كلها خرافات والدليل الواقع.

والسويس وتبادل الحب ثم سألت هل توجد جناين في الجناين وسوق السحاب والسحاب يغطيه وسط الأبراج الشاهقة ونحن جميعاً نحمّل والحاويات تتكاثر بكل حرية وبدا الجميع مستمتعين بما يحمّلون ويحملون ويحلمون، ثم إن القاصي والداني يعلم حقيقة دوران الأرض وضبابية الأحداث وتتابع الأيام والشهور والسنين بل الساعات والدقائق وكم عدد الغائبين العالقين والمعلقين والمتعلقين والمتعلق بهم لذلك الحرية هبة نادراً ما تجد حظها في التقبل عند الأشخاص بل لا يطيقها الجميع

وهذا ناتج عن ممارسات من لا يحسن التعامل مع هبة الحرية وهذا رأيي أيضاً.

ليس غريباً أن يعجز الأطباء عن لقاح لفيروس كرونا الغريب أن تركز الدول على أدوات القتل أكثر من أدوات إحياء البشرية. ثم نظر خالد بضجر هل هذه حريتهم المزعومة متثائباً أريد أن أنام.

****

الجمعة المشرقة

في صباح الجمعة المشرقة التي سماها سوايسة أمدرمان بهذا الاسم تيمنا أخبرني خالد أن الشمس اليوم رأفت بنا متخيلاً أننا أبناء الشمس وأن الشمس كانت قرمزية لا تشبه ما مضى وجزم الرأي بذلك وأصروا جميعاً وأسرة تصديق عقلي الباطن لهم وحاولت جاهداً وظلّ خالد يحدثني عن الشمس وإفريقيا وحبه للقاهرة وبغداد وجوباً وباريس وهو لا يعرف الملل وأنا لا أدري أيقظة أم حلم هذا الطواف الضبابي؟ وتلك القزامة السائدة وصوت المطر يدندن وتلك الجالسة والخوف بعينيها تتأمل تاريخ النساء وبطولة نزار قباني.

وأرجوحة المطر

وغنواتي التي فاحت

بين الناس بالنظر

وتلك الصور

وأوراق وجمال

رنات الوتر

وألحان أصوات اللقاءات

ومساكن الناجين من عثر

وأنا أهتف

عاش البشر

عاش الشجر

عاش عاش لأجل أن ننتحر
ويستقر كالقدر ناهشاً بلا كدر

والثقب يتراءى وأمدرمان والسويس يحبلان وعجائبة البحر الأحمر وطلوع القمر وأنا أسأل بشير وخالد وعلاء ومعتصم أي السبيلين شر أشر اجتماع النقائص أم فراق الوطر وما الخبر هل لاح بين الناس وانتشر. إشراقة الجمعة والشمس تغشتني منه ثغرات أوضحت لكل سوايسة أمدرمان ومن شايعهم أن القضية لن تحل هكذا دون جدلية وقياسات وأن كل النظريات لا تلامس نفسيات المتنمر بهمٍ، دعك من التعاطف المصطنع وكل ما هو مصطنع. حينها أكمل مهدي حمدي شرحه دون توقف دون تملق قائلاً هذه انعكاسات ومفارقات وإشراق الجمعة لن يدوم ثم تهلل قائلاً لا تنسوا الفضل بينكم وتحدث عن السبعين قصيدة التي تمردة عن كل أنواع الأدب ونحن جميعاً تفتحت جميع الحواس عندنا هائمة مما يقول.

وأكد جميع سوايسة أمدرمان في يوم الجمعة المشرقة ظهرت النجوم نهارًا جهاراً وخالد صامت متتبع رائحة العدس التي ملأت المكان واتجه الجميع إلى الحب الخالد بكل حواسهم.

طرأت لنا جميعاً أفكار مختلفة وتأملات وتململات. تحدث خالد مختصراً لنبادر ونحترس وهو يغسل عدد من أواني الأكل بفومها وبصلها وعدسها والصابون يتطاير متعانقاً بالماء حد الالتصاق وعم إبراهيم يقول إحنا لما كنا صغيرين كانت الدنيا بخيرها وكانت المشاعر صادقة ليست كمشاعرنا

العاهرة التي تتراقص لكل مصلحة وشيخ محمد رمضان أمام المسجد يقول كفاية ياض ما تحرقش دم العيال مردداً إحنا كنا غلابة والحقيقة أننا فعلاً غلابة خالد ممسك يدي آدم يجب أن نعمل؛ فالواقعية التي نتسوق بها تحيطنا كسور السويس تمنعنا من اشمئزاز الواقع المفرط حد التقزز ونحن آملون بما هو أفضل كما تعلمون أيها الأحباب ومصعب يتجول مغنياً ياوطني يا بلد أحبابي وسوايسة أمدرمان الهائمون يكملون في وجودي أريدك وغيابي حتى تبللت اللحاء شوقاً وطرباً يقظة كأنه منام وهذا حلم عابر.

هناك دائماً خيار بين كل الخيارات نتمسك به ونجعله وجاء دون سطحية بكل واقعية وحب شفاف يُرى بالعين المجردة لا نستطيع تهميش خياراته حتى لو كانت ربما خصم علينا فالإنسان ميال لمن يتجانس معه والمشاعر الصادقة لا تحدها حدود والصدمات القوية والمتوسطة منها تجعلك تفند الخيارات وكله أحياناً بلا مقابل لكن العبرة لمن يعتبر.

اديلوا كلكس تلاقي سارح فين مش عارف إسماعيل يقاطع علاء الدين الطموح وهو يوضح أحد النظريات لعدد من سوايسة أمدرمان وهم في خضم يوم كالمعركة حامية الوطيس تحميلاً وتفتيحاً تخيراً بين كل الخيارات الآنية واللاحقة حيث لا مجال لكنهم يعملون بنظرية كلام الطير في السماء لا يسمعه من هم في الأرض وهو منهمك في الشرح والسرد. إسماعيل تلاقي فاتح شباك نفسه على البحر ورامي شباكه عايز يصيد.

علاء الدين بيت القصيد ليس هنا إنما في تعزيز مثل هذه العلاقات حتى تصبح أكثر صدقاً وغير مرتبطة بمصلحة ماء فالحب غالباً يأتي صدفة يقدم من خلاله الطرفان العديد من التنازلات. خالد وإسماعيل وياسر ضاحكون حاسب السمك يا علاء.

وعبق البحر يخالط الجميع ويلطف المكان وإضاءات تحسب هنا وهناك والسويس يا أحباب عامرة طامحة ونحن فيها كالنجوم نحب ونتحب نتبادل الجمال مع الجميع.

خالد يا صديقي لماذا كل هذا التوتر ونحن في حضرة أيام تعد للتاريخ لو لا تسرعها كشاطئ دون ضوضاء كشاطئ دون وجود وكل الجالسون في صمت لدرجة السكون لنتنسم عبقها ونستجم ونرنو فيها ركناً بعيداً خالداً إلى متى؟ إلى أن تتبدل عقارب الساعة أو تتوقف أو يصيب الشر كل الفيروسات المميتة المخلوقة والمصنوعة فالعبث لا يتوقف طالما العابثون يقفون وظهورهم صلبة ونواصيهم تجد أمثالهم أتباع دون أي مبررات تذكر فهم أتباع بلا رغبات إلا ليكونوا أتباعاً، والخيرون في الوجود على قلتهم في نفق ضيق شديد الظلام كثير المطبات ونحن عالقون في هذا التيه، بائسين نحلم ونحمل ونأمل بوجود مغاير نذهب إليه بأنفسنا، نصنعه نكد لنجنيه نتألم حتى نحصل عليه. خالد متأوهاً وكل الحضور كأنهم من أهل الكهف في غمرتهم ورهقهم بين الخام وأكثر من اثني عشر بريمة تنتظرهم كالأجنة

في بطون أمهاتهم لذلك الأمل بالنظر من هواياتهم المحببة والمقربة والعيون الغارقة بين الجفون تتوهج مع توهج الشمس كالجمر على المنقد
أجسادهم تخبرك وأرواحهم لا تقنط والشمس تشهد لألفتها لهم لذلك يا خالد كما قلت لك لنعمل ونحترس ونحن في ضلالنا القديم التجرد ونكران الذات وبالحب تكتمل اللوحات وتذهب اللوعات ونثمل بخمر الياسمين على ربوع كردفان ونرقص طرباً وسرور في أعالي دارفور ونمجن فرحاً في أصائل النيل الأزرق كأننا تائهون بلا دليل نبحث عن رفقة في أرض اللعنات كما قلت لك بالحب تكتمل اللوحات والنخل الوارف يملؤنا رطب بهوات وأنا وأنت وبوش وخضر وكلنا نغني وننشد كالنسمات والحب العابر للقارات والنور الساطع في الطرقات وشعراء الحق كما الفراشات ينثرون رقيق المداد ويخلدون عبارات الصمت السابق في ومضات. فلا تتأوه يا صديقي لتحرق قلبك فالصفح أجمل والعابثون أحرص وظهورهم أصلب ونحن نأمل ونعمل لغد أفضل.

****

البحث مستمر

البحث مستمر والحب لن تخور قواه أيها الجمع من عامة السوايسة وسوايسة أمدرمان خصوصاً كل المكروباصات الأتوبيسات والقطارات تحمل العديد من الناس المختلفين مكاناً وزماناً السائحين التائهين العابرين القابعين وأنتم الوحيدون هنا كأنكم هناك أنتم الوحيدون تسبحون مع التيار وعكسه تمرحون والنجوم والقمر ينظرون والسماء كراكوبة تغطيكم وكل المساجد والكنائس والمعابد كأنها فيكم والسويس تحتويكم والبحر يرسل لكم كل صباح هداياه المعتبرة، ثم أنت يا خالد تعرف ذلك وتلك الأبرولات الغبشاء تشهد والنتائج مبهرة دائماً.

علاء الدين الطموح قف يا هذا ولا تنسَ أننا نتغطى بملاءات أعيننا أحياناً لا تنام مع أجسادنا النائمة وأنا وأنت وخالد ومحمد موسى والجميع يخالجهم الشعور الرمادي السير وسط النائمين والتبسم بين العابثين لكن أبواق الكسارات وحدها تمنعنا وعم إبراهيم يعرف هذا أكثر من أي أحد

خالد البحث مستمر يا أصدقاء والنجوم التي ترون ستختفي مع بزوق الفجر والثقب يزيد يوماً بعد يوم إن لم ندرك الموقف ونترك الخوف والانتظار العبثي للمجهول

اختلفنا أو اتفقنا يكون الأصل هنا الحب الذي بيننا ونحن يا علاء خلقنا أشداء وخلقت النساء من أضلاعنا والعمر لا يتردد والموت حينما يأتي لا يتردد فالعالم هذا لا يرحم هذا لا يرحم إلا القليل الذين هم بسمته ونظرته منهم والعمل على مدار الاثني عشر ساعة ليس عيباً بل قوةً وصموداً.

والتحديات ليست قليلة علينا التماسك أكثر والنَيل من العابثين فأنا وأنت كالأقدار سابحين نلهو مرة وأحياناً نئن من السنين وأحياناً نعانق الوجع بالورود مبتسمين، ليتك أيها الوطن تتحدث لتبين الخارقين لكل القوانين بدم بارد ليتك تأشر نحوهم ليتك تخبرهم وتخبرنا.

حتى بكى مهدي حمدي بأعلى صوته وهو يقول: أنا أعمل أنا موجود أنا أعمل أنا حي أنا أعمل أنا هنا بين العالمين قائلاً: خلود الذكريات يا خالد يجعلنا نتعايش مع أوقاتنا السيئة ونختار الجميل نضعه في صفقة التبادل العاجل لنستمر يا خالد رغم الخيبات المتتالية يومياً رغم التخاذل من الجميع لكننا صامدون طوال الوردية وسنصمد في كل ورديات الدنيا حتى تتحقق كل الآمال ويأتي صباحنا فجراً يملأ المكان والزمان بما يسر.

سنستمر كطيف يبين ويختفي ويسامر كل المجانين بشغف يبهجهم يجعلهم في نشوة الجنون بلا كلل هكذا نحن سوايسة أمدرمان نحدق بعمق في أشيائنا الصغيرة ونصرخ بلا صوت ونغني للجمال كما العصافير إذاً أخبرهم يا خالد فرداً فرداً بلا ملل مراراً وتكراراً أخبر نجم الدين والطيب وإدريس ومحمد موسى أخبر الجميع أن الذات الفارغة من أمل لا تقوى في مطبات الواقع وستنغمس في أقل من خطوة نحو الحياة وأنّ العابثين يخشون تراكم الطموحات لكن الذكريات تفضح أمرهم وتجعلنا نتغلب عليهم ونمضي قدماً.

القربة اللي بتخر بتخر في صاحبها عم إبراهيم معمم حديثه للجميع وهم يغوصون في ذكرياتهم متأملين الترياق الممتد جمالاً لا محدود عابراً كل الأفاق منذ الأزل مرددين ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ثم رددها عم إبراهيم ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وليست كل الأرواح تنام عند دخول الليل أخبركم هذا للعلم فقط لا غير، انشروا يا أبنائي الفرح في كل مكان املؤوا ذواتكم قدراً من الحب والجمال املؤوها ولا تتخيروا بكل ما هو ممكن، اجعلوا بحثكم مستمراً للنور والضياء والقناعة قوة لا يصلها إلا الذين شربوا شربتها وتمشوا في طرقاتها، ونحن جميعاً مؤهلون لتصيد الخير دون مساومة أو ملاومة فالأرض تسعنا جميعاً بكل ألواننا ولغاتنا وأحلامنا نعم تسعنا جميعاً.

****

وردية ليل

بذوق الفجر الصادق مع الزملاء وارتباط أحلامكم الصغيرة بجعلكم أكثر قوة نعم نعم، أثنى الجميع على كلام المدير إلا أن مبارك اختلف معهم بعد أن أسمعهم شخراته المتتابعة في نومةٍ مفاجئةٍ وأتبعها بحركة بهلاوانية تؤكد عمق فعلته. ضحك الجميع بمن فيهم المدير ساخرين، عجوز عجوز أفاق مبارك مع آخر كلمات المدير يمثل استيعاب ما دار من نقاش هامساً لإسماعيل يا له من رجل يتكلم بلطف ضحك إسماعيل لقد تعالت شخراتك حتى وصلت جميع سوايسة أمدرمان ومن شايعهم ثم ضحك الجميع وتفرق كل إلى مكان عمله في ورديتهم المحببة ليلاً وأصبحت الأصوات تتداخل مع بعضها تجد من يغني ويترنم وتجد من فاض بهم الأنس مع آلاتهم وأحلامهم وتسمع صفيراً وأصوات الجرذان تتحرك مسرعة تسكن أعلى وأسفل وكل مكان من باحة المصنع الكبيرة كأنها تقسم ورديات وتجد عجوز يأكل الباذنجان الطازج بالفلفل الأحمر يقول سأنهي حياتي عاملاً في مطعم حتى أستمتع بهذا الطعم.

والليل يمضي بالحب أيها الرفاق بالحب نكمل ما بدأ هو من قبلنا بالحب وحده يحيا الإنسان قال مبارك بالحب والباذنجان زاد بوش والطعمية الساخنة في أول الوردية ومريم البائعة التي تحب مجيد صبي الكهرباء ثم صاح مسمعاً أشعاره المرتجلة.

ركبت اليوم من المحطة البعيدة

أفترش الورق الأبيض منتظراً

مرت قارورة زادت لي عطشي
ورمتني أتأوه من ألمي
جعلتني أتوسد قلبي
تملأه حسرات الخذلان

تقهقه عم إبراهيم محللًا إذاً أصابتك سهامها وأنت لا تجيد السباحة والرماية ضحك بشدة لكنني أجيد ركوب الخيل وأنت من دربني.

ثم ضحكا معاً متناسين ما يدور خارجاً منهمكين في ورديتهم البديعة كما يلقبها المدير

صرخ مبارك مضى نصف الزمن لكن يؤسفني جداً لم يصمد الباذنجان ولم أستطِع الصبر عليه قال مجيد لقد بدأت صيامك منذ الآن ثم توالت الصيحات والآهات وسوايسة أمدرمان يحلمون ويأملون وجماليات لا تنتهي رغم العنت رغم كل شي فليعرف الجميع أننا الوردية البديعة.

همس مجيد في أذن عم إبراهيم الليل قارب وقد لاح الفجر وعجوز لم ينم قال بابكر: سينام عاجلاً أم آجلاً. رد مبارك: لمن لا يعلم أنا والليل أصدقاء منذ الطفولة كنا نحتسي شربة الحمام سوياً يألفني وآلفه كم كانت لنا ليالٍ ذات وشاح نلنا مجدها بكل ثبات اختيارنا لم يكن عبثياً إنما لما اكتسبناه بكل جدارة والقطار وعبق البحر صداقة دائمة قائمة على معصم تليد وقلب نابض هكذا هي يا مجيد دون حساب أو اختيار لنا والليل كلنا نمضي مهما بقينا نمضي.

ومريم عندما تأتي مكتحلة أموت كعادتي في تلك اللحظات وعندما تقترب لتخبرني بالشوق ثم تمد يدها محملة سندوتشات الفول والطعمية وقرص العجوة ولب القرع الأصفر. قال عم إبراهيم السندوتشات دعامة حبك الحقيقية، ثم جلس مجيد ينظر إلى السقف المبلوط وترسم العناكب عليه أشكال هندسية وأخرى مختلفة قائلاً.

مريم التي أخذت في قلبي مكاناً قصياً آه يا مريمي يا غرامي وإلهامي وأحلامي.

لحظتها ساد الصمت المكان وتعالت أصوات الماكينات وحركة كل مخلوقات المصنع الأخرى حتى شخرات عجوز اختفت وظل هو يعمل في سكون تام واقترب الصباح ثم صاح مجيد مرة أخرى: يا مريمي يا غرامي ضحك الجميع وعلق عم إبراهيم: إذا توقفت الدعامة هل يصمد هذا الحب؟ يقصد السندوتشات...

سمع الجميع صوت يألفونه على الوردية ألا تغادر صالة العمل إلى حين إشعار آخر بدأ الكل ينتظر ويترقب قال مبارك رأيت عيونكم مختفية لأول مرة والنعاس بينكم أشعثاً لا لحية له وأسندَ ظهره على أحد البراميل الفارغة وهو يتحسس جيبيه الفارغين صارخاً ولاعتي كأس العالم الذهبية خافضاً صوته التي تركتها على سريري هنا لم يتمالك صبي الكهرباء نفسه أوقفه الصوت المألوف ربت على كتفه معلناً اختيار مجيد عامل مثالي للشهر ومبارك الشهير بعجوز مثالي للعام دوت الصالة تصفيقاً فرح جميع

السوايسة وسوايسة أمدرمان خاصة لكن سرعان ما سمع الجميع تلك الشخرات المألوفة التي اعتادوها والجميع ينده مبارك مبارك عجوز عجوز استيقظ قائلاً أين هو إلى أن قال أنا هو ثم دوت الصالة مرة أخرى تصفيقاً وتصفيقاً

وظلت الشخرات تتوالى وظلت الجرذان تنصب شباكها كلما غفى مبارك لتتذوق الباذنجان المقلي بالفلفل الأحمر والنمل والبعوض والعناكب ترسم ومجيد ومريم وسوايسة أمدرمان وذلك الأمل والعمل.

****

قوارب الرحيل

عشقتها وبادلتني بالعشق نفسه ليس سراً ولا أخفيه أجد نفسي على متنها وهي تتجول بين الموانئ والبحار وحقيبتي الزرقاء الصغيرة أحملها دوماً معي ومرات عديدة أعود بها مبتلة ومرات أخرى أعود بها ملأ بهداية صغيرة أخفيها على الجميع حتى أتذكر بها رحلاتي المختلفة. كثيراً ما حكيت عن عروسات البحر التي لم التقيها يوماً لكني مرغم الجميع يظن أننا نلتقي أشياء البحر الغريبة فنكون عرضة ونتوقع أسئلة غريبة يستلزم علينا الإجابات.

وشنطتي الصغيرة الزرقاء عالم مختلف وحين نقف على الشواطئ البعيدة التي يربطنا بها الحلم ولأحلام اليقظة طعم اختلافه مختلف والقوارب جميعها متفقة على الرحيل ونحن على متنها ننسج خيوط الشوق وأعيننا لا تلتقي كثيراً ورموشنا لا تلتقي كثيراً وقلوبنا متقدة تشبه أمواج البحر وللأمواج صور بلا نسيان بلا ألوان وشنطتي الزرقاء تحمل كل هذه الجماليات وتحمل ما خفي أعظم.

أتذكر بطن القرش يا كبوريا؟ تلك التي حسبناها يابسة لو لا باجوري لكان ما لم يكن والسفينة البيضاء البعيدة التي خطف شعاعها أبصارنا كأنها عروس بحر، وقرلة البحر السوداء ونحن نيام وصياح أحمد رمضان خربانة أم بناين قش والسمكة التي تشبه الجهنمية هذا كله يا ناصر نعده باللحظة ونستشف منه في صفقة التبادل ثم نظل ندور الأمر إلى العودة الطوعية وكلنا يحمل حقيبته وأضيف حقيبتي الزرقاء الصغيرة إلى أن نرسو

في ضفاف السويس وأمدرماننا التي لا تسأم حالمة آماله ونحن جميعاً نقاوم ونستبسل الجهد والرهق.

لكن يا كابتن نور يقال البحر أقرب إلى السماء من كل نواحي الأرض الأخرى هل لمحتم الشمس تستيقظ باكراً وتشع بين جفونكم؟ بل صادقنا أطفالها ولمسنا جمالها عن قرب وهي ليست ساخنة كما يشعر البعيد عنها رطبة تفرز أشعتها الساخنة عندما يبتعد أبناؤها ويتأخر مجيئهم. ضاحكاً من أغرب الأسئلة الغريبة التي واجهتني لكننا دائماً في استعداد للإجابات الغريبة أيضاً.

للمعلومة فقط القوارب حياة كاملة تحمل في جوانبها كل ما تحمله الأرض نقول أنّها أرض مصغرة من صنع الإنسان من لدن نبي الله نوح إلى يومنا هذا وأشهر ما يتنقل به الكائن البشري. ناصر مقاطعاً أرض مصغرة في أرض سائلة مصغرة صحيح؟ والبحار هي أعجوبة الأرض قاطعه أوكير وأعجوبة الدنيا بأجمعها.

ما رحلتنا من السويس بورتسودان جدة التي كانت أواخر شهر يناير التي تجلى فيها البحر الأحمر متزيناً وعرواسته كأني أراهنَّ متزينات عندما وجدنا كبوريا اصطاد سمكة وهو يسأل أحمد رمضان ده ديك البحر ضحكنا عالياً يومها وأطلقنا عليه اسمها كبوريا ثم دللناه بكابو. واستمرت رحلاتنا بين المحيط والخليج أضفت أنا شنطة زرقاء أخرى حتى أوسع دائرة مقتنياتي الصغيرة التي أخفيها. والقمر يصور كل شيء منذ

ولادته إلى بلوغه ال١٤ثم يعكس إضاءته الجذابة فتكون بحيرة قمرية نشبع أبصارنا بالنظر إليها ودائرتها الكبيرة التي ترسمها على سطح الماء المالح نكاد نثمل من الجمال لحظتها وقاربنا لا يعرف الرجوع أو التوقف نجول ونطوف في الأرض والسماء فتسرق آهاتنا وأوجاعنا إلى أجل غير مسمى فتغمرنا سعادة الأسماك الصغيرة المتطايرة حولنا وفراشات الزقب الأصفر وحسابنا للأيام وتواليها ولياليي البحر العجاف عندما تعطلت السفينة وغناء القبطان البوذي ذي الجذور الهندية مقلداً فنان أفريقيا محمد وردي وهو يقول: أمي كانت تحبه علمتني هذا الحب كما هو فسرت على ما أنا عليه باحث عن كل جميل. السفن هذا العالم الذي يعرفك بشتى المخلوقات التي تراها عن قرب ويثقل تجربتك الإنسانية بثقافات مختلفة من بقاع العالم.

ما هذا الصوت؟ أوقع الشيف حامد أحد الأطباق وهو ينادي أيها الناس البلطي يرفض أن تلتهموا ويعارض بشدة قرارت القبطان البوذي والمشعل يسانده والولاعة وأنا الآن أحمل خفيّ حنين في يدي اليسرى تاركاً اليمنى إن له طقم آخر من الأحذية ثم اتبعا ضحكته الهامسة التي اشتهر بها.

قال باجوري أظن أننا الآن في حلف الجوع قصرياً وحلف الجوع لا دين له وقلبه قاسٍ. خربانة أم بناين قش أحمد رمضان قائلاً سأجرب حظي وفق قواعد قانون الطوارئ، ثم تناول عدداً من رغيف الخبز يأكل ويدندن.

يا خرطوم وينك يا بلد الطيبين للزاير يا أم الكل يا حنينة القلب الحائر
نحن الآن وسط البحر نتنسم
قوقاي الطائر
نتنسم من ذكر الضحكة
مع الأولاد والأم والناير

أصبحت شاعراً تراصف الكلمات؟ لا لست شاعراً يا حامد إنه تدفق وجداني طبيعي يجري مجرى الدم الآن قال باجوري إذن كلنا شعراء. تمهلوا أنا لست شاعراً لكني أحب الشعر وأحب البحر وأحب أن أراكم كما أنتم الآن سعداء بما يكفينا لـ٦ أشهر قادمات ماذا يسمونه المتكلمين على التلفاز؟ ضحك باجوري مخزون استراتيجي من السعادة. وهو لا زال يلتهم رغيف الخبز. قال له محجوب مخزون من السعادة على حساب مخزون الخبز هذا ليس عدلاً والعدل هو أن نأكل ثم نسعد.

هذا كان ديدننا ونحن على سطح البحر يا ناصر نقضي وقتنا بكل مافيه نمرح نفرح ننسى كل الهموم والأحزان نفتح كل الصفحات البيضاء. خوض البحر ليس سهلاً، أقسى من تسلق الجبال الشاهقة أقرب ما يكون للسماء كما قلت إن تشبثت سلمت وإن تنازعت معه هرمت إنه البحر يا ناصر ونحن فيه نمتطي قوارب الرحيل أحراراً، طيور على أجنحتها رسالة السفر تجوب العالم.

الدخان

تحاشيت هذه الهمجية كثيراً لأنني أعتقد جازماً متيقناً أن الغرق قادم وأن لا مجال للنجاة. الأخشاب في الأساس كانت أشجاراً والفحم كان أشجاراً والخبز كان قمحاً ونحن كنا طيناً وسنكون حطاماً.

أرهقتني هذه النمنمات رغم عشوائية اختياري أحياناً أغرق في بحر الإلهام وأسبح منفرداً بلا شاطئ. ضاحكاً عود الثقاب بداية حريق وبداية حرائق مختلفة وغرق. ثم افترقت واجتمعت واغترفت واغترفنا إثما عظيماً وتباين لنا عمداً ثم ما هذا؟

أغرقت نفسي عبثاً وأنا غارق، ثم دردمت "سفتي" وانقشع النوم من عيني وتناسيت غرقي وبؤسي وسنارتي وهاتفي وغريبة الأطوار تندهني وغرقي يندهني وليلي الحالك يندهني وأنا عاجز لا أستطيع الاختيار التفاضلي. أما غريبة الأطوار هي شعاع من جينات متراكمة دوماً ما تتحسسني وأنا غريق نومي دون انقطاع وبلا مقابل وبكل تجرد متجردة من كل أغطيتها وأوعيتها وأنفاسها تعلوا وصوتها يذهب مع الريح والريح ليس لها مشاعر تتحرك منفعلة بكل ما تملك من قوة بكامل حريتها والوطن ليس شعوراً عابراً أو انتشاءً عاطفياً يهيج ثم نراه مصفراً هكذا أخبرتني غريبة الأطوار وهي تتهادى بين ما بيني وأشلاء أخرى غير مفيدة. تخبرني أنني غير مدرك لما بي من لا وعي أصابتني به وأنا أصرخ بكل حرية وحق إلى متى؟ وأنا أبتعد إلى لا مكان بغير إدراك ثم استدرت إلى جانبي ملت قليلاً إلى جانب لا أعرفه وهي تردد الوطنية ليس قناعاً يرتديه من يشاء كيفما يشاء

بل هي أقوال تتبعها أفعال تصلح لكل الأجيال وفي كل الأحوال بحرية لا تطاق كما خلقها الله. ثم عدل سوايسة أمدرمان جلستهم تأهباً لقصته الشهيرة الدخان وخالد لا يأبه وبدأ سرده الممتع قائلاً الدخان

جعلني أظنه جزء من السماء بما رسمه من شكل دائري يشبه القمر المكتمل لكنه بني اللون. حسبتك غاضباً مني عندما خرجت مسرعاً. جويرية لماذا أنتِ هنا؟ وكيف وصلتِ؟ تتبعت نبضات قلبك إلى هنا فدلتني إليك. لم يكن عليكِ المجيء اليوم الدخان، أكتوبر تحدث ماذا تقصد بالدخان؟ أقصد أنَّ عليك الذهاب حالاً يا عزيزتي جويرية المكان ليس آمناً والدخان والليل اقترب. لن أذهب حتى تخبرني أنك تحبني ولستَ غاضباً مني بسبب ما ذكرته لك من أنّ والدي يريدك أن تكمل مراسم الزواج وأن خطبتنا قد طالت وأنا أصبحت باهتة الشكل بكثرة ما أسمعه من الناس بهذا الشأن. رغم ما أعانيه إلا أن قلبي ينبض بك وحبي يزداد يوماً بعد يوم. أنا يمنعني الدخان ويهددني بك ها هو صارخ اتركنا ستقتلني أولاً إذا أردت قتلها.

استيقظ أكتوبر كأن شيئاً لم يكن، لكنه تفاجأ بجلبة حول سريره وأصوات تعلو وتنخفض خارج الغرفة لحظتها كشفَ غطاءه ليجد جويرية وأمها وأمه نظر إليهن قائلاً ماذا يحدث؟ هل مات أحدهم؟ ردت جويرية حاولت قتل أبي الليلة الماضية قلت إن الدخان تلبسه وهو خطر علينا. لماذا؟ وما أدراني أنا.

العالم يتحرك مسرعاً والعتمة تملأ الأماكن وشكل الكرات يتطاير وأنا لستُ إلا رقيباً عليكم حتى لا يعميكم ويغلق قلوبكم بالعتمة فعليكم السمع والطاعة وإلا ستواجهونه منفردين.

جويرية: أكتوبر هل فقدت عقلك؟ هل أصابك مكروه؟ ماذا عن وعودك بالبقاء معي إلى الأبد؟

ماذا عني أنا يا ولدي؟ لقد كسر قلبي.

أكتوبر ضاحكاً: لا تقلقوا أنا رقيبكم جميعاً لا يستطيع الوصول إليكم بوجودي.

هدأت الأصوات خارج غرفة أكتوبر بعد أن وصل طاقم الإسعاف وهم يرتدون لباسهم الأبيض. صرخ أكتوبر بأعلى صوته عندما رآهم قائلاً: هم معاونو الدخان والعتمة بين قلوبهم لباسهم ليس إلا شكلاً كالكرات البنية التي تشبه القمر. يريدون قتلي.

جويرية: اهدأ حبيبي أنت مريض وهم المسعفون لا تقلق حبيبي.

أُخذ أكتوبر إلى مستشفى التواني للأمراض العقلية سأله الطبيب من أين يأتيك الدخان يا أكتوبر سوار النور؟ يأتيني من كل مكان أيها المتعجرف الذي بشبه ثور خائر لا يستطيع النهوض ثم من أنوف أمثالك وأبواق السيارات وهوهة الكلاب الضالة. ضحك الطبيب وتبسم، أكتوبر وكل من كان حاضراً من الممرضين قال أكتوبر للطبيب: ما اسمك أيها المعاون ألف الفصيلة جيم؟ ولماذا ينتشر بينكم الهلع؟ هل أنتم مجبرون على الخضوع

للدخان وتنفيذ ما يطلبه؟ قبل أن يجيب أحد منكم أريد إخباركم أمراً. إن مركبي لن تطفو جيفة مهما فعل دخانكم

وعنواني هو الموت للدخان والبؤس للتعمة وحبي والبائس سينجو وسأتزوج نحيلتي جويرية. نام أكتوبر بعد أن حقنه الطبيب وحلم كأنه يمشي بين الأموات وأن أمه تنتشله انتشالاً لتخرجه بعيداً حيث وجد جويرية وأنجبت توءماً سيامياً، ملامحهما تشبه والده المتوفى قبل أكثر من عشرين عام والنور يشع من جبينهما، مكتوب على أيديهما النور وسوار والخوافي حتى يبعد الشر وهو يبتسم في منامه حتى لامست يده يديّ أمه قائلاً لها ليطمئن فؤاد أم أكتوبر ولتشعر بالراحة. أخبرها إن أبي قد زارني ليلاً وأخبرني بسرك القديم وأنك تعلمين معاركي قبل حدوثها وتعلمين أنني على حق لكنك تخافين عليّ أكثر من خوفك على نفسك وتعلمين أننا سنخوض هذا السجال لوحدنا. كم أنتِ عظيمة يا أمي وهي تئن وتقتلها العبرة ودموعها شلال منهمر

أرادت أمه الرحيل قال لها أخبري جويرية أنني أحبها وأن النار ستنطفئ ودخانها في صفنا وأن الكلب الكبير الذي رأيته ما هو إلا المعاون ألف الفصيلة جيم الطبيب الماثل أمامكم وأخبريها أنها سترى قططاً وجرذاناً تقاتل في صف الدخان وأنها الآن مطلوبة لديهم عليها أخذ الحيطة والحذر أنهم غدارون لا يرحمون وأن خدودهم تتورد مع الشمس ويخشون الظل والماء ولا يحبون المسك ولتظل مبتسمة ضاغطة على سبابتها اليمنى.

سمعت أمه طرقاً على الباب قال الطارق أنا الطبيب هل يمكنك الانصراف؟ نعم وهي تبكي على حسرتها في ابنها الوحيد الذي تناديه أطول الشهور.
أصبحت بلا شك جويرية في قبضتهم وأن كلبهم الكبير بات الآن يتذاكى ضحك أكتوبر تحقنني بأنسولين التصدع حتى أفقد الذاكرة كلياً لن أسكت مهما فعلتم ستنكشف كذبتكم الكبيرة وسيعرف العالم قاعدة التواني وأن الدخان بات كالغبار في حكم النواجيس أصحاب الكلمة عليكم وسيدكم. تحدث الطبيب بلغة غير مفهومة عند أكتوبر إلى أحد الممرضين ثم أشار إليه قف يا أكتوبر سوار النور واجلس على هذا الكرسي.
ضرب أكتوبر يديه اليمنى على اليسرى أخيراً سنلتقي وجهاً لوجه أخيراً سأقول له عن الهلع وأبصم بالعشرة على ذلك وأنه لن يجد مني غير التواني وتنقيع مياه المجاري في وجهه العابث كوجه ديناصور منقرض إلى أبد الآبدين. انتهره الطبيب: اجلس، وألبسه أحد الممرضين ما يشبه السماعة الكبيرة في رأسه متحدثاً مع الطبيب باللغة الغريبة ذاتها.
صرخ أكتوبر بأعلى صوته وهو يتألم ويقول: جويرية قد بات هواك متنفسي الوحيد وأصبحتِ الدم السائل من قلبي إلى الوريد وأنا أتنسم صوت مجيك في كل اللحظات، وهذه اللحظة بالتحديد أنا أتسكع بين عينيك عيناي تواري خوف الريد، جويرية عيونك ناعسة تشبه ملاك الحور الهائم بين الصيد.

ثم أغمض عينيه مبتسماً سنلتقي أيتها الشقراء ونمضي لياليا البهية. استمر الطبيب والممرضين يثبتونه على الكرسي المتحرك وهو يقاوم بشراسة لكن كل محاولات الإفلات لم تنجح، وأصبح مضجر الوجه منكوش الرأس متلعثم اللسان في أذنيه طنين، رجلاه لا تقويان على الوقوف، يداهُ كومة لحم. أصبح يسمع بالنظر ويتحدث به. في خياله جويرية عارية تحمل التوءم السيامي على أكتافها، وثدياها تقطران لبناً كالماء ليس أبيض ولا أزرق! وهو محاولاً الوقوف ليغطيها من عيون الكلب الكبير ومعاونيه الفصيلة جيم وهم يضحكون ويضربونها بعصيهم الصغيرة فوق قدميها، وهي تتلوى وتشتم الكلب الكبير وتخبره أنا زوجة أكتوبر سوار النور هل تعلم من هو؟ هو الذي سينهي عهدكم ويشردكم ويجعلكم أذلة ولو بعد حين. أخيراً صدقتني نحيلتي أخيراً، سأبلغ رسالتي للعالم وجويريتي تحميني أنا الآن أيها المعاون أسعد إنسان ودخانكم سيتبخر.

لكن لا زال أكتوبر أيها الطبيب في غيبوبته هل هذا مبشر؟ أم أنكم تُخفون شيئاً عنا؟ تأكدي يا أم أكتوبر، نبذل قصارى جهدنا لينجو ابنك. قال أكتوبر: لا تصدقيه إنه معاون ألف. تساءل الطبيب في نفسه: كيف نطق؟ ردت أم أكتوبر نحن نملك هذه الموهبة التحدث بالعيون في حالة الإغماء. خرج الطبيب وخرجت أم أكتوبر وخياله معهم يلاحقهم ويلاحق الفتاة الغريبة ذات العيون شديدة البياض والسواد ولها شعر أزرق كانت تمشي كأنها تخفي نفسها وكأنها تريد أن تقول اخرجوا أكتوبر أنه المبلغ. لا

تشبه جويرية من هذه؟ هل هذه قريبتهم من الريف أم أنها جاسوسة جديدة تريد محو ذاكرتي هي الأخرى؟

ربت الطبيب على كتفه لا عليك يا عاشق النحيلة سنقضي على وسواسك من دابره. وأنا سأقضي عليكم من دابركم ساعتها لن تجدون موطِئَ قدمٍ وسيعلم القاصي والداني بخبركم لن ينجوا منكم أحد، وأنت بالذات أيها المضطرب ستتذوق نفس الكأس وتضرب بنفس الفأس وتحلق روحك بلا عودة في أسفل سافلين وجويرية معشوقتي ستكون الشاهد عندما يصيبكم الويل، وأمي وكل من أصابه دخانكم يستلقي وينظر ويقص أظافره ثم يغرسها في أنوفكم. وتلك الفتاة الغريبة ذات الشعر الأزرق ستدرك. لماذا توقفت عن الكلام ستدرك ماذا؟ أنا أقف على الهواء كأني أمتطي بساطاً سحرياً أنا أطير يا جويرية نعم أطير أحلق. حان الوعد يا حبيبتي حان الوقت. ستدرك الفتاة الغريبة النور من أوله وتقود المسير بين الناس حينما تعلو الصيحات الكل ينتظر الكل ينتظر.

اعرفي يا أمي.. أكتوبر يحبني وأنا أحبه ولن يفرقنا سوى الموت سنجوب العالم وتكون حياتنا مواسم أفراح. أبوك لا يطيقه وأنتِ تعلمين هذه الحقيقة. سيحبه أبي عندما يعرفه. أبوكِ يعرفه منذ أن تقدم لخطبتك قبل ثلاثه أعوام. أقصد عندما يعرف حقيقته. أكتوبر مُبلغ أمر به عندما كان طالباً وأنا الطرف الثاني المكمل أي الداعم له في جميع خطواته أظنك

تلاحظين التغيير الذي يحدث الآن. أظنني يابْنتي فقدتُ أعز ما عندي وكدت أجن من جنونكم وخطيبك.

ضاحكة: نحن خلقنا لبعض ليس مجرد أحباب فقط أنا الداعم وهو المبلغ هو القائد وأنا ظهره أسنده في شدته أقف إلى جانبه في طريقه الشائك. لتهتفي معي الموت للدخان والبؤس للعتمة حتى يرتعد النواجيس أصحاب الكلمة بكل فصائل التواني. هأنذا أعلنها يا أمي بلا كتمان بلا خوف جنب إلى جنب حبيبي أكتوبر مبلغنا المنقذ.

لم ينم أكتوبر ثلاثة أيام بلياليها تحسباً منه أن قاعدة التواني المستشفى ستنفجر في أي لحظة وأن المعاون ألف والفصيلة جيم سيحترقون شر احتراق. والآن أنا على المحك أما التبليغ أو التوديع. خطتي الخروج ثم الولوج في حبة التنين بين جفون النواجيس في مجرة التتابع النور وحده سيكمل البداية ثم تنهيها جويرية وهي ترتدي زفافها الأبيض الطويل وجسدها النحيل أخذ بيدها تقول لي سفينتنا تسير على اليابسة وهي أعجوبتنا من ركب معنا لقد وصله الصوت ومن تملكه الدخان سيحترق ثم يأتي النواجيس يبتلعون اللهب وتصبح بطونهم لهباً لا ينطفئ. وأنا أنادي التبليغ لمن ركب السفينة والوداع لمن ساده الدخان ونحيلتي ترتدي فستانها الأبيض ننقذ العالم ونحتسي قهوتنا كل مساء بالقرب من شاطئ أحلامنا مع كل رشفة حلم.

إلا أن صوت الطبيب قال: أكتوبر المتعجرف صاحب الذيل. يتحدث الطبيب باللغة الغريبة ذاتها مما جعل أكتوبر يغمض عينيه. ختم الطبيب حديثه: لكنه نائم الآن. ضحك أكتوبر في أعماقه: لن أنام بعد الآن إلى ذلك الحين إلى أن ألج بين الليل والنهار وأعود كأن شيئاً لم يكن. لماذا قلبي يرن؟ جويريتي بدأ يصرخ نحيلتي. الدخان يريد النيل مني أنا لست نائماً أين أنتِ يا معشوقتي؟

وصل المسعفون سريعاً إلى منزل جويرية بعد أن أرسل والدها إليهم وجدوها مرتدية فستان زفافها الأبيض وتتراقص وتغني. صرخت الصرخة التي صرخها أكتوبر وهي تقول: ليس لباسهم إلا لون هم معاونو الدخان الفصيلة التي تقبض الداعم.

تشبثي يابْنتي روحك نقية وقلبك مترع بالشباب لا زالت أيامك حُبلى وهي تبكي بحرقة وقلبها يتقطع ثم هتفت دون مقدمات دون حتى إشارة. الويل للدخان الويل للفصيلة جيم والمعاون ألف.

تفاجأ الطبيب وكبير الممرضين! أكتوبر أين أكتوبر باتا قلقين وجاسا بحثاً عنه تحت الأسرة وكل الغرف المجاورة، المكاتب التواليت كل مكان أشجار الأناناس التي تملأ المستشفى الطرقات. الطبيب أنا أسمع صوته وصوت جويرية أنا أسمعهم بوضوح.

أيها المعاون ألف أنزل يا أكتوبر لنعقد صفقة أكتوبر أنا عقدة صفقتي مسبقاً اليوم ليس يومكم. تجمع مئات الناس من كل جوانب المستشفى

قائلاً لهم: أنا أكتوبر سوار النور مبلغكم وهذه داعمي معشوقتي رافعاً صوته جويرية أتت كأنها تطير. سرح الناس مع فستانها الأبيض وهم يرون صورهم معلقة تتلون عليه وذكرياتهم والتوءم السيامي. اقترب أكتوبر منها ممسكاً يدها قائلاً التبليغ لكم، ثم قبلها واختفيا كطيف لامع بلا دليل بلا وجود بلا مكان. عاد الناس يندهون أكتوبر جويرية. الطبيب ليس هناك من يستجيب ومذاق الأناناس ورائحة القرنفل وصورهم لا تفارق خيالهم وقبلة الانصهار التي تذوقوها. صرخ الطبيب الفتاة الغريبة ذات الشعر الأزرق الدخان أكتوبر جويرية.

ثم أردف خالد حديثه أظنكم تبحثون عن أكتوبر وحبيبته هيّا هيّا اخلدوا للنوم لتبدأوا يوماً جديداً لا يرحم.

****

وادي أزوم

عدت ثانية أتحسس ذاكرتي وأنا لازلت شارداً أبحث عن لا شيء استوقفتني عبارة قالها الشيخ موسى لابنه (ده وادي أزوم آب قلقات) يعرفه أخبرني ضحكت وعرفني بهذا الوادي العملاق والجمال الذي يطوقه من شتى نواحيه كل ما ينقصه سلام واقعياً. وتطرقنا في تلك الجلسة لقضية حب علاء الدين المثيرة بينه والليل وعد النجوم وهو يضحك ويقول الليل يا أصدقائي أجد فيه السكون وحساب النجوم يعلمني الإصرار ويقوي ذاكرتي. هامساً وأحادث فيه حبيبتي الشقراء وألتقط عبق البحر. أوقف ثرثرة علاء الصوت الصادر من صناديق الطعام خاصته مهرولاً نحيته لقد ثقب كل الطماطم الموجودة. أنقذنا الفار إذاً قالها محمد موسى لولاه لشطح في عوالم أخرى. ضحك علاء قائلاً: بين الرغبة والرهبة خيط رفيع يردنا إلى الجادة والرغبة أقوى وأنا راقب لكني غارب عن وجه الرقبة بذلك الخيط الرفيع ولفائف ولفائف يفترشونها بكل حب. "بصوا الحياة ديت مدرسة وإحنا كلنا طلاب".

هيثم: علاء الدين يا عزيزي أن نفصل مستوياتنا أتدرون جميعاً أن العرجاء إلى قطيعها وأن كل ما هو مصطنع قد ينفجر في لحظة واحدة وتتحول كل الأكاذيب إلى براكين لا نرقب في رؤيتها. دعونا إذاً نكون واقعيين ليست كل النظرات تأمل.

وليس كل وجه جميل يحمل الجمال في أعماقه. صه إنه صوت القطار حدثتكم أنا عن محطة حاجة حواء سأفصّل لكم لاحقًا، ثم واصل علاء

في إسهابه: أنا بين مصدق ومكذب أتحسس هذا التمرد العابر وتلك المسافات التي تعديتها مراراً عبر الخرائط آملاً عبورها وعلاء الدين دائماً ما يصور الأشياء كما هي والعبرة ليست هنا العبرة أيها الأحبة أن تتخذ مكاناً ملائماً تجد فيه أنت كما أنت بكل ما أنت عليه. نعم نعم يا أصدقائي هذا ما يسمى ضوء الذات الكل يطمح في السمو والتسامي إرغاماً لما يحيطنا من حواجز وموانع ثم إن الذي حاجك في أقل الأعمار بقاء، أقول له الأكاذيب وظل الضحى. ووادي أزوم العامر يا موسى ألم تأتِك رغبة العودة والتمتع بهذا المتنزه الرباني؟ وتتوه بين أشجاره الوارفة وتصطاد الدباس أو حمام الوادي كما يسمى وهو راحل كعادته. هانت يا علاء قريباً سيكون الحب بالحب عملة نتبادل به منافعنا ونقضي به حوائجنا عابرين كل المطبات نرفع أعلامنا القديمة وتوزع الأحلام كالغنيمة وننهض كصهوة جواد لا تعرف الجفوا والبعاد ووادي أزوم الأخضر سيعلو، ثم يمطر ثم نرتاد الثريا بكل جميل والعالم سيشهد ولادة التاريخ.

ابتسم تلك محطات قابعة لا تنسى. علاء وهيثم والجميع بصوت واحد: عن أي لحظات تتحدث؟ سرح قليلاً ثم قال: التقطها لأول مرة عند منحنى يسمى جدول الأحباب يتسم ذلك المكان بالخضرة والماء عندما رأيتها كانت هي الوجه الحسن، التقطتُ صورتها ووضعتها في الحافظة اليمنى لعقلي يومها لم أكن أشرب القهوة شربت كوبين متتاليين عندما وجدتها تشرب وكنت انظر إليها وأتأمل. سألني صديقي العاز إلى أين تنظر؟ قلت له جبل

مرة. أردت التلويح لكن منعتني بابتسامة براقة تكاد تقتلني وجبل مرة حاضر فيها ووادي أزوم وحظيرة الدندر وخور أبو حبل وتوتي وكل مناطق الجمال بكل جمالها وقوامها وخضرتها. ثم ارتحلت ورصيفاتها إلى حيث لا أدري وكلن نظري قد جن وذلك الزخم الإبداعي الشاهق يسير بين أرض المنحنى وروحي.

التقطتُ أنفاسي بعد غيبة وطلبت كوباً ثالثاً من القهوة قالت أميرة بائعة القهوة: اِلحق، صديقك النحيف لقد وقع في الحب. كنت قد وقعت تماماً كما قالت، وأنا الآن لا أعرف من أنا وأميرة تحكي لصديقي بعض مغامراتها العاطفية في حسرة. والله يا ولد أمي كلها انتهت بالفشل. قبضتني كلمتها الأخيرة شعرت بغرزة في حلقي، ثم أتتني جملتها الأخيرة برداً وسلاماً لكن في الأخير تزوجت نصيبي.

تجول نظري في كل جوانب جدول الأحباب بحثاً عن وادي أزوم الأخضر وعن جبلي مرة أدمنت القهوة وأدمنت ذلك المكان وهي غير مبالية صدقت العبارة الشهيرة من الحب ما قتل. صدقت كل ما كنت أسمعه عن الحب صدقت ما كان يفعله عنتر ومجنون ليلى صدقت وأنا لازلت أتردد على جدول الأحباب عساني أجد محبوبتي التي لا أعرف لها اسماً ولا سكناً ولا الفتيات اللائِي كنَّ معها لم أجد إحداهن. نمت لحيتي زدتُ نحافة وحباً لها. لازلت أذكر تلك الأيام يا علاء كيومي هذا وأنا أقول في نفسي العشاق مجانين لا يبالون. حينها كنت كذلك لا أبالي. والفرق بين جبل مرة ووادي

أزوم ليس كبيراً في الجمال ونحن جميعاً انتعشنا منه. أنا أشرب القهوة إلى يومنا هذا والمحزن المبكي وجدت شقيقتها تبعث لها التهاني بمناسبة التخرج والزواج. كان اسمها دار السلام تسكن جنوب أمدرمان. وضعت تلك الصحيفة وما تحتويه من فوز الهلال والحفل الساهر لعقد الجلاد. قال علاء: وبكيت كما لم تبكِ من قبل. بالعكس كنت فرحاً، أخيراً تخلصت من إرهاق البحث وعناء التفكير بها وعدت من أطول رحلة في حياتي.

ضحكنا يومها كثيراً وشربنا ما لا يقل عن خمس أو ست صبارة قهوة والليل يمضي وأحلامنا تتوسع شيئاً فشيئاً حتى صاح المؤذن وسمعنا صوت القطار وتنفس الصبح وانبلج ونحن نرسم، نعم نرسم لوحة الأمل بألوان من التعب والعناء والحب وسوايسة أمدرمان إلا نحن أغطيتهم تلتصق بهم، نوم عميق ووادي أزوم أراه ينبوعاً من الرفاه، على بُعد قلبين وجبل مرة كذلك. حتى سمعنا شخير هيثم جالساً ثم بدأنا نجرر أرجلنا إلى أسرتنا بحثاً عن نوم وحلم جميل يملأ واقعنا بكل خضرة وجمال وشرفات الحب على الشارع والشارع ساكن لا حركة والليل يصارع مقتولاً ارتاد الحب مع الأمواج ارتاد ملايين المرات.

عبثنا أياماً وليالي نلتقي بين الأحلام المنشودة والواقع الذي يغلق منافذها لو لا تشبثنا بالنواجذ عليها تراءت لنا كالجبال في تسلقها رأينا منها ما يجعلك تقوى على كل مؤلم على كل بؤس، أحلامنا الكبيرة والصغيرة التي كادت تشيخ مع هذا التسرع للأيام ونحن جميعاً وكل من عاشرنا وعرف

سوايسة أمدرمان يعلم مدى تمسكنا بها، يعلم قوتها وتشبعها في أعماقنا أنا لا أقول هذا عبثاً، إنما عشناه وعاش فينا ووادي أزوم الممتد وجبل مرة الباين. سريري يصدر أصواتاً أظنها تضجر وتخيلت عم إبراهيم وسوايسة أمدرمان يسمعون قارئة الفنجان لحليم ويرددون مع الأبنودي شعراً ورأيت جيوشاً تترامى ترسل أشواقاً في حمامة تزرع نبتاً ترمي لقماً في قمامة ورأيت فوانيسَ الأفراح تتسارع فرحاً في الوادي والنبت يمدُ أيديّ النور حتى أصبحت بلا حركة أتنسم عبق اللحظات وسريري يصدر أصواتاً.

****

الاحتواء

الاحتواء هو الحب الحقيقي يا أصدقاء ونحن عندما نحتويهم نضمد الجراح النابتة التي إن تركت ستتعمق ويحيا الصغار عليها بلا هوية بلا حياة بلا نور يحيون ليموتوا لا يؤدون واجبهم نحو الأرض نحو الإنسانية والسمو بالفضائل.

هل نضعهم في دار ليعيشوا فيه يا خالد؟ ليس مهماً دار وإنما أن نصنع منهم إنساناً يحمل مع البشر ما يحملون ويأمل معهم ما يأملون نزودهم مما تزود. هم يفقدون المنازل ويفقدون الآباء والأمهات وكل أليف. لنجوب الشوارع والأسواق هم منا ونحن منهم وهم فينا ونحن فيهم والبعد ليس عائقاً يعيقنا ولا حائط يمنعنا الجسور تمتد إلى كل مكان.

صمت علاء وحملّق هيثم نظره وتثائب خضر. قال عبد الله وهو يستعد للذهاب: نحن لها، هتف الجميع: نحن لها. وضع خالد يده على كتف خضر وهو غير منتبه

لندرك الزرع في وقت الأصيل

لندرك الزرع حتى ولو قليل

لندرك الأطفال في عمر عليل.

نزل سوايسة أمدرمان والقبطة تتملكم محتوين الشكاير والجولات الكبيرة والشغف دافعهم تجول في خواطرهم

كل المدائن والمساكن

والمشاريع والمدافن

والمتاريس البعيدة
بين ليالٍ وصباحات أكيدة
بين سفن وأشكال بتحوي
الرسومات العنيدة
الفتوحات المجيدة
الله عالم بالشوارع
طافية وسط الكون تصارع
فيها فاقد للأبوة
فيها مفقود من سنين
ساكن الآلام مربع قلبه مليان بالأنين.

تأمل مهدي حمدي وقال لهم: هذا هو الخيار ولا خيار لنا لنبتدر ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان للحب مكان وليس لنا في هذا الزمان أمان نحن قوم نستيقظ مثل الطيور نتحدث بكثرة كتغريدها جراحنا أعمق مما يتصورها ناظر بعينه لنا أمل وعمل.

همس عز الدين في أذنه الذي بيني وبين الحياة حلم ضياء وفاء وأن أظل من الغرباء وأن أعيش حبيسَ السطور وكل أنواع الجمال بحور وقلبي ينبض بذكر كريم يهدهد روحي وأن أستقيم وهذا مصير قديم قديم.

رفع عز الدين قطعة الحديد الصغيرة قاطعاً الجوال هل سمعتم خبر الصباح؟ أجاب الجميع بلا تشبه: نعم قالوا بصوت غليظ نريد الخبر. قال

علاء: هل خبر الشباب على ضفاف الموت يريدون الخروج أعالي الجزر؟ خبر قديم يعود سريعاً يسابق الأحلام يسابق النظر.

صمتنا جميعاً، قال عم إبراهيم: (بادينج لين، توتنهام، فكسهول) حياة الثلوج بلا شمس لهذه الدرجة تكرهون الشمس؟ تكرهون حبها لكم؟ عوداً سريعاً إلى رشدكم الشابل ليس لكم مونماتر ليس لكم هناك هي أرضكم.

هلموا عليها خفافاً ثقالاً بكل النظر

ومدوا الجسور يمينَ الطريق

واملؤا الشمال ماءً ودقيقاً

وشيدوا الصروح وهاتوا الرفيق

جميعاً جميعاً هي لا تضيق

قال خالد: تحتاج فقط حلماً أصيلاً، حلم أكيد لتنبت جيوشاً تضيء الطريق تضيء المكان وتخمد حريقاً تحتاج فقط حلماً أصيلاً يفتح منافذ يراقص مطر يضيء الشموع.

قال علاء: لقد سئمنا حياة الثبات تولد تعيش فقط ليأتي الممات وأنت أعلم بذلك والبحر الأحمر يشهد بما سمعه من تنهيد.

رد هيثم: لا نكره الشمس بل يسعدنا أن نكون تحتها مباشرة يسعدنا جداً.

همس خضر نحن أبناء الشمس نحن الزين نقف صامدين في وجه الرياح ننتظر الفجر ننتظر الصباح ألفنا كل أنواع الصبر خبرنا الطرقات البعيدة مشيناها بكل ثبات أنا لا أحلم بالبعد وسط الثلوج أو الغوص في أزقة بيوت الخشب أو حيث تصنع العطور في باريس، لكني لقد أوشكت على الغليان أريد التجمد قليلاً.

نظر عم إبراهيم إلى خالد وتحدث قائلاً: شهدتم جميعاً معاركم الخاصة شهدتم حربكم لكنكم لم تشهدوا بناء وطن، أعيدوا شريط ذكرياتكم أعيدوا أمجادكم الصغيرة، ثم كبروها اصنعوا منها بطولات أو ارتموا في حضن المنافي واستكينوا إليها واقتلوا أوطانكم واقتلوا أحلامكم لتحيا الشوارع بأطفالها لتحيا المدن في الحزن ترسو لتحيا القنابل والمدافع ليموت الجياع لحي الصراع وأنتم اسعدوا دون امتناع.

****

حرب الأمواج

لم أرتدِ قناعاً لكني تواريت يوماً عندما جاءت النسمات محملة واشتد المطر وتطايرت الأسماك الصغيرة، يومها كنت أرى وأسمع نحنحات حريقة وباجوري وأسمع أحاديث القبطان البوذي وهو يؤدي الصلاة متضرعاً أن يحمينا القدير من هذه العاصفة كان جميع سوايسة أمدرمان في ثبات بينما تتأرجح السفينة وسط تلاطم الأمواج من كل صوب وحدب، ثم عدت شيئاً فشيئاً سالكاً الطريق إلى غرفتي التي كنت أتناصفها مع الشيف حامد أردت النوم والنوم لا يريدني والأمواج لا تهدأ ولا تهتدي! نعم سمعت هذه المقولة من قبل وتأكدت منها اليوم بنفسي قاطعاً الشك باليقين تاركاً كل ما سمعته عن الصداقة بيننا والأمواج، جلست القرفصاء ونهضتُ إلى الخزانة أصدرت ضجيجاً وحركت بعض الأشياء لكنه لم يعرني كان ثابتاً كالأموات لا يتحرك، وأظنه لا يحلم خرجت مسرعاً لعلّي أدرك آخر اللحظات قبل الغرق قبل الموت قبل الفناء قبل الرحيل وسوايسة أمدرمان لا يأبهون وأنا بين الرجاء والأمل أتردد بين الغرف أطرق الأبواب أنده الجميع أوكير باجوري حامد حريقة أحمد رمضان لا يسمعون. صرخت هل مات الجميع هل ذهبت أرواحكم إلى السماء؟ ثم ندهت ناصر خليل لعلهم يسمعون رغم بعدهم رغم غيابهم.

ربت القبطان البوذي على كتفي قائلاً: استيقظ يا كابتن نور استيقظ شارف الفجر على الانبلاج الليل في خواتمه، استيقظ وارتدي معطفك الأبيض ارتدي حزامك الأسود، لقد طهى لنا حامد عِجلاً والجميع ينتظرك.

قلت: الحمد لله كان كابوساً فظيعاً كان نوم غير هانئ كنت أخوض حرب الأمواج. ضحك حامد وباجوري وتوالت الضحكات، ثم ضحكت وضحك القبطان البوذي وضحك رجل غريب لا أعرفه، بعد أن قدم له باجوري كوب من الشاي الأخضر الذي أعده القبطان البوذي وهو يقول هذه وصية أمي علينا جميعاً بها. شرب الرجل الغريب الشاي على عجل كأنه يلحق قطار السابعة صباحاً وهو ينظر من خلف نظارته الرمادية يقهقه في الضحك استفزني بل استفزتني ضحكته فقلت: نحن معشر سوايسة أمدرمان لا نرتدي الأقنعة لا نرتدي النظارات الشاحبة رأيته اعتدل في جلسته مبتسماً قائلاً: أنا إبراهيم صديق القبطان البوذي

لقد جرفت الأمواج سفينتنا في حرب ضروس لا تهدأ ولا تهتدي كنت أقاتل وحدي والجميع في ثبات عظيم.

طلبت الشاي الأخضر بعد أن رددته وقلت: لا صداقة لنا مع الأمواج وأخرجت شنطتي الصغيرة الزرقاء بعد انزوائي قليلاً وكتبت على دفتري ذي الأوراق الصفراء، حرب ضروس، ثبات عظيم، حرب الأمواج، ثم ندهت باجوري وكبوريا وتوجهت إلى أعلى السفينة وجدت البحر هادئاً أليفاً ثابتاً ونظرت إلى الجالسين ودققت النظر في إبراهيم الرجل الغريب وراجعة ذلك الحلم الكابوس وتلك العبارات المتطابقة.

أشرقت الشمس وملأت المكان وبدأ الجميع كأنهم يسبحون ثم أشرت ملوّحاً وقلت في نفسي: هأنذا والبحر نلتقط أنفاسنا نجتمع بعد فراق بعد

أن أشرقت الشمس، وللشمس والبحر علائق لا محدودة وريم البحر يتهادى والأمواج تستمر وأنا أحدق بعمق والغريب يقهقه وذلك التطابق العجيب في حلمي ويقظته، ثم هام القبطان البوذي مغنياً لوردي والرجل الغريب وكبوريا وباجوري هاموا طرباً والشيف حامد ينظر بعيداً بين ضجيج السفينة وضجيج الحياة وقلبه مطمئن وباجوري أمهلم لحظات وتراقص وتراقصت أنا والشمس والبحر وسوايسة أمدرمان التقينا نلتقط أنفاسنا نخرج الشهيق ثم الزفير

شئنا أم أبينا ارتضينا أم لم نرتضِ العالم محيط ونحن على سفينة ربما لا ترسو بين ما يحدث من شد وجزب وتناكف لا يهدأ ولا يهتدي. نعم يا أوكير لنتفق حتى نمضي لنجتمع حتى نرسو لنمد أيدينا بيضاء ليعمنا سلام الأرواح. آه خربانة أم بناين قش ثم بعث أحمد رمضان بواعثه مع الريح مفرداً لها أجنحته لتطير يتابعها بنظره إلى حيث تغيب حيث تجد السلام حيث تجد السكينة وموائد الرحمن صائحاً:

يا ويح قلبي

يا ويح أطفال المدائن

والمناجم

يا ويح عمال المصانع

يا ويح آدم

يا ويح حواء الجميلة

ترتدي غسق الليالي
ترتدي حب الخليلة

ثم جلس وكان الرجل الغريب يبتسم ويرتشف الشاي الأخضر الذي أعده القبطان البوذي وكان باجوري يتحرك كعادته بين الفينة والأخرى سمعناه جميعاً بصوته الأبح يقول:

سفينتنا سترسو
ذات يوم
ويتعلم الناس منها
سنمضي إلى مرفئنا
إلى لقيانا
إلى حيث أشجانا الفرح
والتقينا من سنين
إلى ذلك التاريخ
بالأحلام والآمال حرين

وهو محركاً كفيه على شكل الكرة قائلاً: هذا لكم ولهم وبسمات الشيف حامد لا تفارقه وأمله وحلمه وجميع سوايسة أمدرمان يشهدون والجدار والقطار وصوت الرياح والثبات العظيم الذي اجتاحنا وأغنية أغداً ألقاك

وسوايسة أمدرمان يهيمون مع الست أم كلثوم مرددين خلفها كأنها هم وحريقة يستعيد الذكريات.

ثم نظرت إلى مد البحر وجلست أعلى السفينة حيث كنت والمياه ترتدي ثوباً لحوائنا وتتجمل بزينتها وتلك الضفاير وذلك التموج قاطعتني سمكة كأنها تخاطبني وتخبرني عن البعد والهوى عن الشوق والنوى لحظتها أخرجت دفتري ذا الأوراق الصفراء وكتبت ثم محوت ثم أدخلته وأخرجته وكتبت سمكة لها أسنان تشبه طائر القمري وترفرف الحمام وصوتها يميل إلى الضفدع ومد البحر يعلو والأمواج تتكاثر وأنا جالس وكبوريا وأوكير وحامد وباجوري يجلسون والقبطان البوذي والرجل الغريب يتسامرون وأحمد رمضان في حالة شوق عارمة والشيف حامد صامت مبتسم لا يسأم والبحر يمد ويجذب

جاءني إحساس القفز إحساس أن يلامس جسدي الماء المالح دون حواجز أطلب وأنا أنظر إلى السماء وأعد أماكن النجوم والشمس تغطيها

لاح لي خليل وناصر وسط الأمواج يعلون ويهبطون وهم يلوحون وأنا ألوح إليهم حتى سمعت كبوريا ينادي كابتن نور وهو ضاحك سترسو ابتسمت ووجهت نظري صوب الماء والموج يعلو لعلي أجد خليل وناصر لعلي أجد السويس لعلي أجد أمدرمان والسماء كراكوبة تغطينا وطائر السمبر يتمرجح هنا وهناك وغابات السنط المتشابكة تملأ المكان خضرة والجميع يبوح على شاطئ النيل بما يخفي ويتألم، وحواءنا تعطف وتترنم وتبتسم

والماء يتموج ويتموج وأنا أتنفس أعدت نظري لأجدهم وقوفاً والرجل الغريب وسطهم يتحدث وهم يسمعون وهو يتحدث والقبطان البوذي غير موجود احتواني الفضول منعني التموج البديع للضفة الجنوبية للبحر رسم الموج لوحة أشبه بالخريطة القديمة لأفريقيا أشبه بحلم الأمم الأفريقية الموحدة لتجابه الموت البطيء والسريع أشبه بعالم إنساني لا ينتقص فيه الخير للشر قيد أنملة والمد يعلو والشمس تشع في كبد السماء والماء يصفو والذاكرة تصفو كذلك شنطتي الصغيرة الزرقاء تمتلئ ورقاً إضافياً أخضر أبيض لتحمل كل ما تستطيع حمله

والليل يقترب مسرعاً ونحن جميعاً نترقبه كساعي بريد يترقبه الجميع ليفرح من يفرح ويبتئس من يبتئس وسوايسة أمدرمان كما أعلمهم يأملون ويحلمون ويحملون ويفتحون نوافذ الخير في كل مكان.

غنينا الفرح في الريد

مدينا الأيادي قريب

ولمينا الحكاوي

وفاتحناها وسط الموية مشتاقين

ردت وردة غيرانة

تجادل النسمة حيرانة.

صاح كبوريا بأعلى صوته بعد أن ألقى على مسامعنا هذه الكلمات وهو في حالة وجدانية كأنها لدرويش في حلقة ذكر حاضرة فيها أرواح الطاهرين

مغمض العينين والمادح يمدح أوعى الغرور أوعى الكبر وكل من في الحلقة يردد الله الله رأيته بعدها كالمتسمر والسفينة لا يوقفها الموج والضفة الجنوبية تتلألأ وتنعشني بجمال المنظر

****

الترقب

لعلك لم تجد في البحر ما يمنعك من الترقب والنظر قريباً من أبعد الأماكن؟ هذا ما ثبت جلياً لنا سواسية أمدرمان جميعاً وليس أنا باجوري وحدي الذي خالط الأسماك والتحف بالماء وتغطى بالشمس. كنا جميعاً الترقب هوايتنا المحببة في قمة الشد والجذب للحياة في قمة هياج الماء ظللنا متمسكين بشعارنا الحب بالحب والأمل خير معين على العمل. بترقبنا تجاوزنا مراحل الانبهار بالبعد تجاوزناها منذ صغر غربتنا منذ عهود صفاء وصفاء هذه ليست فتاةً بل مشروعَ حالمٍ أردنا به الابتسام في وجه الظلام في وجه الحزن عند طلته لقد تقدمت أعمارنا ونحن ننتظر والحب بالحب كما علمتنا الأيام والبادئ أظلم كما علمنا البحر

لم نلتقِ عبثاً كان هناك ما يوحدنا ما بهمنا سوياً وأنا نفسي أدهشتني المودة في أقل وقت دون وصايا دون حتى تعارف علمت أنّ للبحر سراً عميقاً امتددنا كبحر وسرنا كقطار في سكته الطويلة في قاربنا الكبير الحب على قاربنا الصغير وسط الماء المالح ابتهجنا أياماً وليالي عدت مواسم حلت أفراح تتبعها أحزان عدت سفن بلا رجعة وظل الترقب هوايتنا وسمرنا بين الماء والماء وأصوات الجمال تلاحقنا ونحن نلاحظ بعمق في رحلاتنا الدائرية ونترقب بالحب ذاته بالشوق ذاته بالمودة ذاتها أن نجد ضالتنا أن نجد أحلامنا التائهة في صفاء تحلق عالياً ترسو في أمدرمان تتجول فيها تزرع هناك بذور النور بذور الضياء تنتج سلماً وسلاماً تنتج حباً وغراماً تنتج فرحاً علاّماً تصنع فرق مهموم بالخير.

سفينتنا أحياناً تبطئ وأحياناً تسرع والبحر الأحمر يتورد وأنا أحياناً أتردد وأحياناً أمضي، أتودد أجد السُلم أجد المرصد أسجل كل لحظة في كراسة الذاكرة المتمردة الذاكرة التي امتلأت لا أقول تشيخ لكنها كثرة عليها الذكريات فكان الليل أية بديعة والسماء ولمعان نجومها وجبال الغيوم وبعض المدن التي رأيناها رسماً في طفولتنا كنا جميعاً نحب البحر حباً جماً كان عقداً فريداً من المحبين عقداً ثميناً شهدنا معاً معارك مختلفة يا ناصر قائدنا الحب الأسمر في وقت شدتنا وقت عسرتنا كان قبطاناً يؤلفنا يزيد مودتنا يزيد حماستنا يشوقنا للقاء.

مضت وتمضي الأيام التي خلدت وظلت وستظل فينا ما بقينا

سوايسة أمدرمان.

****

اجتماع المطر

كان الجميعُ منشغلاً بسقوفٍ من الأحلام وكان الليل والنهار يمضيان كالعادة يستعيد منهما سوايسة أمدرمان الثبات.

همس خالد في أذن بشير أسمعَ بشير الجميع الهمس الذي لا يعلمون قائلاً: المياه لا تركد والنواة لا تذبل والشمس عندما تشرق لا تتردد وطائر الحياة أبور الرهيو لا يقاضي.

عبث خضر بلحيته ليس جالساً ولا مستلقياً وأشعل علاء سيجارة وهو قلق متوتر ينظر إلى السماء خرج محمد موسى يحمل شبه عكاز يؤشر به ومرايا مبتسماً، نهض خضر أخرج صندوقاً صغيراً بعثره على الأرض، ثم أعلن: يا خالد لقد وجدت سنارتنا القديمة التي اصطدنا بها السمكة مثل العنكبوت. ابتسم خالد ومحمد وعبد الله وبشير. أسمعهم عم إبراهيم صوته من داخل الغرفة قائلاً:

_ لا تجعلوا لأحلامكم سقوفاً أخبروا بها العالم

_ردد خالد: سنضعها في متحف الأيام على مقربة حتى تلهمنا هذه ليست صنارة فقط يا خضر لقد أنقذتنا من الجوع يومها كان يوماً للتاريخ يومها ضحك الجميع.

تحدث عبد الله نرجوك أيها الحضور الكريم، أدعوكم لافتتاح مدينة أبو شوك العلمية التي ستكون منارة بين المدن ومدينة كلمة للبحث العلمي وأنا أجرّد نفسي من حلم آخر في واقع بائس وحرب كالمتلازمة ترتدي أقنعة

مختلفة وتتلون لتعيقنا فلنرفع السقوف إلى أعلى ولنستثمر انعكاس النجوم وشعاع الشمس والقمر لنجوب العالم رسالتنا.

نهض خضر ممسكاً الصنارة كما اصطدنا السمك سنصطاد في كل الضروب بحثاً عن السلام. أخرج موسى قلماً أزرق أخرج معتصم ورقة بيضاء دوّن أبو بكر خليل:

الحرب فيروس والسلام لقاحه

الحرب شتاتٌ والسلام جمع ولقاء

الحرب نارٌ والسلام يطفئها

الحرب موتٌ ودمار والسلام حب وإعمار

الحرب جبٌ عميقٌ والسلام سطح رحيب

الحرب نهاية حاضر والسلام بداية تاريخ

أردف: أحلامنا لا تتوقف سنعمل للحب القادم ولو بعد حين قاربنا أبيض وصنارتنا قوية من الفولاذ. وقع عليها خضر وقال: هذه وثيقتنا ثم وقّعَ الجميع. وقع خالد متأخراً بعد أن جرح إبهامه وقعها بدمه اجتمع حوله سوايسة أمدرمان مهللين مكبرين. أنشد شعراً بصوتٍ مبحوحٍ:

أنا لست إلا واحداً اجتاحني شوق السنين

أنا وطني ووطني أنا

أنا حلمي وحلمي أنا

أنا قومي وقومي أنا

أنا تلك السهول تلك المنارات
أنا لستُ إلا قلم يكتب
لحاضر أبيض مكتسب
بعرق الجبين

ثم قال: قبلة الحب هي بلدي، ورددها معه الجميع ممسكين أيديهم كالشمس عند الشروق كشتلة العَبَّادِ في أرض الجزيرة الخضراء كقطن يطول ويقصر في تيلته تماسكوا قلباً وقالباً. قال محمد موسى: دوّن يا تاريخ وقل لقلبي استرِحْ، دوّن وبشرنا بالجمال وذكرنا كما كنا بأيام النضال.

سمع الجميع مصعب كامتور يغني للوطن ويبكي صفق له مهدي حمدي تصفيقاً عالياً، أفاق له علاء الدين من استيقاظه القافي ناطقاً: أنا وطني ووطني أنا ماذا لو رسمنا حلماً مثل الفراشات فضفاضاً يغطي شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مثل جلابية وعمامة وملفحة وتوب.

وجّهَ الجميعُ الأنظارَ إلى علاء وهو ينادي: يا خالد أدركت لماذا يقاتل الجندي الشجاع إلى آخر أنفاسه. حتى تعلو قضيته وهمه من ينظرون إليه وينتظرون منه الجديد. رد خالد: نحن جنود وتلك قضيتنا وطن نعم قضيتنا وطن ونحن جنود وقف مهدي حمدي نادهاً:

وطن بلا محن
بلا ظنون أو فتن

ثم قال: البحر يرسل عبقه العليل وينعشنا بعد الوقوف كالنخيل وشاي العصرية في سنار ووجبة العشاء الدسمة عصيدة الدخن باللبن وحبوبة عندما تستقبلني بحنانها لم أكن إلا طفلاً لم أحسب لما أنا عليه من بعد وشوق. لكننا لن نستسلم لقلوبنا النازفة حتى تتصدع أو نجد مسلكنا وأنت يا عبد الله لن تتجرد لوحدك نحن يدك وسندك ستباهي بنا يوماً وطن بلا فتن بلا محن. عاجلتنا الأمطار في ذلك اليوم كنا نحتضنها رغم رطوبة الجو أخبرني خالد أنه كان يعلم أن المطبات الكثيرة منها يستطيع الوقوف في مقتبل الأيام. صحت بأعلى صوتي أناديهم إلى وسط الباحة، حيث نقطن ارتدى الجميع المعاطف الواقية، ثم صاح خالد مردوم تبعه آدم في الحديث مردوم وعرضة غنى مصعب كما لم يغنِ من قبل صدح بالجراري وغنى أبو خيمة السنجك وألهب الحماس والمطر يتساقط ويملأ المكان جمالاً كان احتفاءً ضد اليأس ضد الظروف ضد التعب بلا سبب كنا جميعاً حالمين حاملين آملين نتفق ونختلف ثم نطقها في الأخير علاء صائحاً إنه يوم تأتي فيه الرياح من الجنوب. صمت علاء لبرهة ونظر خالد إلى السماء وقطرات تتساقط على جبينه شكلت لوحة زاهية يومها كانت حاجتنا لوجبة أمدرمانية تغطي تلك الفجوة الجوعية التي صنعها المطر جاد علينا شرف الدين بكل ما يملك من دقيق الدخن طهى آدم عصيدة بث الدقيق التهمناها التهاماً ودارت بيننا كاسات أم جنقر وقليل من الشربوت وتلك القهوة التي أبدع خضر فيها أضاف شيئاً لا نعرفه جهل منها أقرب إلى زيت

الرجوع، كان يوماً مبهجاً اجتمع فيه سوايسة أمدرمان تحت المطر على سطح من الأرض حفاة يتراقصون يملؤون المكان ضجيجاً كأنهم قطار يشبهون المارد الممتد البحر الأحمر يرسلون أحلامهم كعبقه.

ارتدى خضر سروالاً وجلابية وعمامة تألق كعريس ليلة زفافه وعرض بشبه عكاز بعد أن غنى: "مصعب الأسد النتر درغام الرجال للعيون كتاح".

ثم جلسنا على مقربة بعد أن حال الليل بيننا وتوقف المطر.

_قال علاء الدين: حاجة حواء اصبري.

_قلت: صبرت حتى أصبحت مَعْلَمَاً هناك يجتمع فيه الأصدقاء والباعة وكل المغتربين من ولايات السودان المختلفة.

_قال موسى: تقصد محطة حاجة حواء؟

_نعم بعينها تلك البقعة التي لا تنام ولا تسأم.

تراءت لي مجموعة من الخطابات والطاقات التي ذهبت هدراً مع الريح إلى الاندثار واستطرقنا معاً معددين مناحي ما كنا نحسب أننا ندركها. انتصف الليل وتراصت النجوم في كبد السماء نام محمد موسى نوماً عميقاً حتى سمعناه يتحدث مباشرة إلى نيالا يخاطبها كسيدة في العشرين ونيف وأحياناً يتمتم بما لا نفهم، ثم جعل يده في شكل قوس وقال: _هذا لكم رافعها إلى أعلى.

الليل يمضي واجتماعنا لم ينفض، لكنّنا نيامٌ مستيقظون، كأننا نلاطم الأمواج كأنّنا بحارون كأنّنا كابتن نور وكبوريا وباجوري، كأننا حريقة في

رحلة بين الأرض والأرض والقبطان البوذي يغني لأفريقيا وفنانها وردي كأننا عم خليل وناصر كأننا لفحة عابرة للقارات على متن سفن برية تسير على اليابسة حتى سمعنا جميعاً محمد موسى يقول:

_نيالا إنني أحبك.

ويفتح قوس يديه مردداً نفس العبارة هذا لكم ولهم، ثم تعالت الهمسات كأنه يحكي لها سراً ونحن نسمعه يخاطبها:

_ لا ترغميني أكثر لا تبعديني أكثر، ارحمي قلبي الأيسر ارحمي قلبي المبعثر.

ضحكنا أنا وخالد وحاول علاء الضحك لكن النوم غالبه فتبسم وأغمض عينيه ملوحاً.

جثا خالد على ركبتيه ناطقاً عبارة لم تجد حاجزاً إلى قلبي، السودان والتطور عبقرية الحاضر ومجاز المستقبل وأنشد شعراً جميلاً لم أستطع حفظه سوى كلمة واحدة سمعتها من قبل عندما حدثنا مهدي حمدي عن السبعين قصيدة التي لا تنتمي إلى أي بحر أو ضرب من الشعر، ثم وقف فارداً يديه على هيئة طائر السمبر رافعاً رأسه إلى أعلى، سألني: هل وصلت الكلبة لايكة فعلاً إلى الفضاء؟ وأتبع السؤال بتنهيدة كأنه يتلذذ بالألم ويقول: ألم جميل ألم مريح ألم يؤلمني جداً، يقسمني إلى نصفين شمالاً وجنوباً، جائع على الطرقات يشوي جسمي البرد يمزقني إلى أشلاء، ثم جثا مرة أخرى صارخاً: وطني... وطني.

وعيناه تدمع ووجه يركع وقلبه يئن ملأ سوايسة أمدرمان المكان ضاق بهم الباب يتسألون ما بال خالد يبكي بلا صوت ما بال خالد يبكي بلا دموع ما بال خالد جرحه يتعمق بلا رؤية ونزيفه يملأ قلوبنا وأرواحنا.

وقف خالد بنظرة حادة قابضاً يده اليمنى قائلاً: هل أنتم راضون؟ هل أنتم فرحون؟ هل يعجبكم العرض؟

نعم بكيت للوطن بكيت للجياع بكيت لليتامى بكيت للأرامل بكيت للعمال، للأطفال للنازحين بكيت لنا جميعاً. بكى سوايسة أمدرمان وأخفضوا وجوههم. قال خالد: الحلم ليس عيباً الأمل ليس عيباً.

جاء صوت خضر مردداً:

الحرية للحرية

والأطفال صافين النية

والأحلام الـ نامت مدة

يا رب تصحى تكمل جية

يا رب تكبر بعد أيامنا

تتوصانا تحوط دارنا

أنا أمدر أنا تندلتي أنا قيسان

أنا كادقلي

أنا ود مدني أنا سنار

أنا بقروسي بت النيل

أزرع أنتج أضوي عديل.

ثم جعل يديه قوساً قائلاً:

_ هذا لهم ولكم والليل يشهد والنجوم تصوّر المشهد ورقصاتنا تحت المطر، كانت علينا ليس لنا كنا نغني على أنفسنا آسفين عائداً الهتاف: الحرية للحرية، رادفاً: تعلموا من طائر السمبر منقارُهُ رمزٌ للقوة رمزٌ للصمود لا ينسى العهود.

انبلج الصبح وعدنا نعدو حالمين آملين نملأ الأرض ضجيجاً كقطار نشبه المارد الممتد البحر الأحمر نختلف ونتفق نحب ونتحب.

****

محتويات الكتاب

إهداء.....5
بلد الغريب 6
الحرية كما خلقها الله.....11
الجمعة المشرقة 14
البحث مستمر 20
وردية ليل.....24
قوارب الرحيل.....29
الدخان.....34
وادي أزوم.....45
الاحتواء.....51
حرب الأمواج.....56
الترقب.....64
اجتماع المطر 67
محتويات الكتاب 76

تمت بحمد اللّه

سوايسة من أمدرمان

قصة

أباذر أدم الطيب

الطبعة الأولى
1442 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com